

# البحر الثاني

## في الحكم العقلي والعادي والشرعي

لا تكليف في الاسلام الا اذا وجد العقل . وهذا يدل على أن الحكم العقلي معتمد في الاسلام ، واذا اعتمدت الملاحظة الكونية كدليل للعقل للوصول الى الله . فذلك دليل على أن الحكم العادي الذي أثر عن وجود عالم الأسباب معتمد في الاسلام ، واذا كلفنا الله عز وجل أن نهتدى بالقرآن وأن نطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن نحكم فيما اختلفنا فيه لله وللرسول صلى الله عليه وسلم وألا نتقدم على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في أمر فذلك دليل على أننا محكومون بالحكم الشرعي . فالحكم العقلي أو الحكم العادي أو الحكم الشرعي كل ذلك معتمد في الاسلام . وكل منها يكمل الآخر ان في التكليف أو في بناء الحياة أو في قضية المعرفة والعلم ، فبدون اثبات الحكم العادي أي اثبات عالم الأسباب لا تقوم حجة ولا يصل العقل الى أي معرفة ، وبدون اثبات الحكم العقلي فان البناء الشرعي كله لا يقوم ، والتكليف في الأصل لا يثبت واذا لم نعتمد الحكم الشرعي فاننا نكون قد عطلنا الحكمة من عالم الأسباب ولم نعط قوانين العقل مداها ، ولم نبين على هذا الذي فلتكن لنا وقفة عند العقل وأحكامه ، وعند الكون وقوانينه ، وعند الشرع وأحكامه .

### الكون وقوانينه

في هذا الكون المحسوس الممتد الى ملايين السنين الضوئية لا تجد محلا للفوضى ، فالنظام أو القانون المعبر عنهما بسنة الله عز وجل تحكمه ، وهذا الكون وسننه قائمان باقامة الله عز وجل ، فالله عز وجل من أسمائه القيوم ومن أسمائه المهيمن .

كيف نصل الى القانون في هذا الكون ؟ كيف نعرف هذا الكون ؟  
ان الطريق الى ذلك : الحواس والآلة والملاحظة والتجربة والعقل •  
فبالملاحظة بواسطة الحاسة والآلة ، وبالتجريب وببصر العقل نتعرف  
على الكون بأجزائه وخفاياه وقوانينه ومظاهره وصغيره وكبيره  
وامتداداته • ولقد سار الانسان في هذا شوطا ولا زال يسير •

والاسلام كلف الانسان بالبحث في هذا الكون فقال تعالى :

« قل انظروا ماذا في السموات والأرض » (١) •

وقال تعالى : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » (٢) •

واذ كلف الانسان بالنظر لاستكناه الكون ومعرفته فشيء عادي  
اذن أن تكون نتيجة النظر معتمدة في الاسلام اعتمادا كاملا • ان  
البحث في الكون والبحث عن القانون ، واعتماد نتائج ذلك من المسلمات  
والبديهييات عند المسلمين ، واذا اقتضى ذلك عند غير المسلمين صراعات  
كثيرة فانه بفضل الاسلام كان ذلك مسلما منذ البداية بل مطلوبيا بقدر  
المستطاع من الانسان وذلك واجب الانسان • ولذلك فعندما سأل بعض  
المسلمين رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأهلة لمساذا يرى الهلال  
صغيرا ثم يكبر ؟ نزل النص القرآني :

« يسألونك عن الأهلة ، قل هي مواقيت للناس والحج ، وليس  
البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت  
من أبوابها » (٣) لم يعطهم جوابا عن الجانب الكوني بل أعطاهم جوابا  
عن الحكمة التي تترتب عليها أحكام دينية ومن السياق فهم أن عليكم  
أن تبحثوا لتعرفوا • فهذا واجبكم ومهمتكم • والقرآن نزل ليعلمكم  
دينكم ، ومحمد صلى الله عليه وسلم بعث ليعلمكم دينكم ، وفي حادثة  
تأبير النخل فهم من فهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم أن  
يتركوا التأبير وبعض الروايات واضحة في أن رسول الله صلى الله عليه  
وسلم أراد أن يلفت نظرهم الى الصانع فلما فهموا ما فهموا أعلمهم  
رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم أعلم بأمور دينهم فما كان من ظاهرة  
مادية أو دنيوية أو كونية فعلى الانسان أن يبحث عنها وما أوصله اليه

(٢) العنكبوت : ٢٠ •

(١) يونس : ١٠١ •

(٣) البقرة : ١٨٩ •

بحثه فهو مسلم ، والاسلام ليس له موقف منه الا الاعتماد سواء في ذلك القانون الحياتي أو القانون الاقتصادي أو القانون السياسى أو الاجتماعى أو المادى أو المغناطيسى أو الكهربائى أو غير ذلك والله عز وجل الذى كلف الانسان ، كلفه وهو يعلم دقائق هذا وغيره :

### «قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض» (١) •

فالله الذى يعلم سر السموات والأرض كلف الانسان ، فما كلف به الانسان عليه أن يفعله ولا يتناقض ذلك مع أى قانون كونى ومن هنا نفهم خطأ الذين يضعون القرآن والاسلام فى معارضة مشاهدة كونية أو قانون كونى ، ان ذلك ليس محل بحث أبدا •

صحيح ان القرآن تكلم عن مظاهر كونية ، ولكن ليلفت النظر من خلالها الى الايمان وليقيم الحجة على الانسان باعجازه من خلال ذكره للحقيقة الكونية قبل أن يكتشفها الانسان أما ما سوى ذلك مما تصوره بعض الناس معارضة بين القرآن وبين حقيقة علمية كونية أو حياتية فهو وهم عريض مردود على أصحابه سواء كانوا مسلمين أو كافرين •

وما يعتمده الانسان من أجل الكشف عن الحقيقة العلمية أو القانون الكونى من علوم وضوابط أو طرق استقراء أو استنتاج فالاسلام يطالب به ولا يكتفى أن يقف منه موقف الحياد لأن القاعدة العامة فى الاسلام : ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب ، وان ما يؤكد وجوب شئ هو القدرة والاستطاعة واحتياجات المسلمين •

ان الأسباب الكونية أو القوانين الكونية هى التى يعبر عنها علماء المسلمين بالأحكام العادية التى يتوصل اليها الانسان من خلال رؤية تكررها واستمراريتها وجزء من هذه الأحكام العادية القضايا التجريبية •

ان كثيرين من الناس استهواهم أن ينطلق الانسان بلا قيود ولا حدود فى البحث عن الكون وقوانينه وظنوا أن ذلك يتناقض مع الدين بل ظنوا أن ذلك يلغى الدين ، وما ذاك الا من تصور نظرهم وجهلهم بالاسلام فلو عرفوا الاسلام لأدركوا أن الاسلام طلب هذا فضلا عن أن يعارض فيه وهذا كله لا يلغى الاسلام ولا يعارضه بل هو جزء منه •

## العقل وأحكامه

ولكن هل الفكر الانساني هل عقل الانسان يقتصر على أن يكتشف القانون الكوني ويعرفه فهو مسجل فقط أو مكتشف في حدود ما تشاهده انحواس ، أو أن العقل أوسع أحكاما من ذلك ؟

ان العقل من خلال المشاهدة والتجربة يكتشف القانون الكوني ولكنه من خلال استقراء شامل لكل القوانين يصدر أحكاما أخرى ومن خلال ما علم يستنتج أمورا لا تقع تحت الحس والتجربة .

واذن فالعقل يصدر أحكاما أخرى منها الاستقراء ومنها الاستنتاج وبعض هذه الأحكام لا يحتاج فيها الى تأمل أو نظر بل يصدرها بدهاءة بحكم ما استقر فيه من معان جعلت كثيرا من الأمور لا يحتاج معها الى أدنى نظر ، فالعقل بمحض البدهاءة يحكم أن الجسم يحتاج الى مكان ، وأن النقيضين لا يجتمعان فلا تجتمع حركة وسكون ولا بياض وسواد ، وهكذا فان الأحكام العقلية تكمل الأحكام العادية في اقامة صرح المعرفة للانسان ولو اقتصر الانسان على تسجيل الملاحظة واكتشاف انقانون دون وجود أحكام عقلية لكانت المعرفة البشرية قاصرة جدا .

ان صرح علوم الرياضيات مثلا ما كان ليكون على هذه الشاكلة لولا أن هناك أحكاما عقلية زائدة على الأحكام العادية التي هي أثر معرفة ظواهر الكون وقوانينه . ومن استقراء شامل للكون قامت في عقل الانسان قوانين العقل : قانون السببية وقانون الهوية وقانون الغائية ، انه من استقراء شامل للكون أصبح في حكم البديهية أن لكل حادثه سببا وأن الشيء هو عينه وليس غيره ، وأن لكل شيء في هذا الكون حكمته التي تؤدي دورها في خدمة هذا الكون كله ، وبالتالي في خدمة الانسان .

وكأثر من تطبيق أحكام العقل وصل الانسان الى الايمان بالله . ومن خلال تطبيق أحكام العقل وصل الانسان الى الطريقة التي يتعرف بها على رسل الله وباستنتاج عقلي وبتبليغ من الرسل عليهم الصلاة والسلام عن الله للانسان عرف الانسان أنه مكلف أمام الله وأن هناك أحكاما شرعية تحكمه وتحكم تصرفاته وأنه مكلف بها ، ومن ثم وجد نوع آخر من الأحكام سوى الأحكام العادية والأحكام العقلية هو الأحكام الشرعية التكليفية التي سنتكلم عنها بعد قليل .

وكما أن العلوم التي يقتضيها ضبط المشاهدة لاستخراج القانون  
أي الحكم العادي مطلوبة شرعا فشىء عادي أن تكون الأحكام العقلية  
الصحيحة معتمدة شرعا • ولا يعنى هذا أن يكون للانسان خيار في قبول  
التكليف أو في الحكم على التكاليفات الالهية ، فالعقل مهمته التسليم  
للحكم التكليفى والشرع هو الذى يقرر الحسن والقبح واذن فعندما  
نتكلم عن الأحكام العقلية لا نقصد حكم الفكر البشرى في قضية تكليفية  
بل نقصد حكم العقل فيما سوى ذلك اذ مهمة العقل البشرى بالنسبة  
للحكم التكليفى هو الاستحسان والتسليم ما دام قد وثق أن ذلك  
حكم الله لأن الله هو الأعلم والأحكم وحكمه هو الأحسن •  
والأحكام الشرعية لا تلغى الأحكام العادية بل تكملها ، ولا تلغى  
الأحكام العقلية المحضة بل تكملها •

فالعقل اذن هو الذى يدرك الأحكام العادية ، وبه يكلف في الأحكام  
الشرعية وله أحكامه الخالصة المحض التي هي محل تسليم من الشرع  
وعليه أن يسلم للشرع أحكامه فيكون دوره فيها دور الفاهم ودور  
المستتبط على ضوءها •

والنص الشرعى يفهم على ضوء الحكم العادى ، وعلى ضوء  
الحكم العقلى المحض اذ يستحيل أن يتناقض نص شرعى مع حكم عادي  
أو مع حكم عقلى محض •

### الأحكام الشرعية

أنزل الله القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم وتعبد الناس  
بطاعة كتابه وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن ثم فان الناس  
متعبدون بالكتاب والسنة وبالأحكام التي تنبثق عن الكتاب والسنة  
بالمطريق التي حددتها نصوص الكتاب والسنة •

والكتاب كله متواتر ، والسنة منها المتواتر لفظا ومنها المتواتر معنى  
ومنها غير المتواتر ، وغير المتواتر فيه الصحيح والحسن ومنه الضعيف •  
ولكن بعض السنة الصحيحة مختلفا فيها ولكون بعض السنة الحسنة  
مختلفا فيها ولكون بعض الضعيف محل خلاف فان ذلك ترتب عليه ،  
اختلاف ما في بعض الأحكام ولأن الكتاب والسنة بلغة العرب ، ولغة  
العرب واسعة المعانى وذات أساليب متعددة في العرض من كناية الى

استعارة الى مجاز الى تشبيه فقد ترتب على فهم بعض النصوص خلاف  
بين الفقهاء •

والكتاب والسنة دلا على الاجماع ودلا على القياس ، وكأثر عن  
الاختلاف في ماهية الاجماع وكأثر عن الاختلاف في القياس وجدت  
خلافات فقهية في بعض الأحكام •

وبعض الأئمة رأى من استقرائه العام للشريعة الاسلامية أنه  
حيث لا نص فالمصلحة هي شرع الله ، ولكن من الذى يقدر المصلحة ؟  
هل هي الشورى من أهلها أو أهل العلم والاجتهاد ؟

وبعض الأئمة رأى أن قواعد الشريعة العامة تستخرج على ضوءها  
أحكام حيث لا نص صريحا في الأمر •  
وترتب على ذلك كله اختلافات فقهية •

ومن ثم كانت الأحكام الشرعية على أنواع : أحكاما معلومة من  
الدين بالضرورة وهى التى لا خلاف فيها بين الأئمة ويعلمها الخاص  
والعام لأن النصوص فيها قطعية الثبوت قطعية الدلالة ، وأحكاما مجمعا  
عليها وليست من باب المعلومات من الدين بالضرورة • وأحكاما اختلف  
فيها الأئمة المجتهدون فذهبوا بها مذهب شتى •

كل هذه الأنواع من الأحكام هى أحكام شرعية ، وعلى هذا فكل  
ما لم تنقله نصوص الكتاب والسنة أو لم يقل به امام ولا يوصل اليه  
استنباط على أصول امام فانه ليس من الأحكام الشرعية •



الأحكام الشرعية على ضوءها ينبغى أن يكون السير فاذا ما اجتمع  
للانسان أحكام عقلية صحيحة وأحكام عادية صحيحة ومعرفة بالأحكام  
الشرعية ، وسار على ضوء ذلك يكون على بصيرة من أمره واذا ما اجتمع  
للناس هذا كله وساروا على ضوءه فانهم يكونون على هدى واذا ما اختلط  
الأمر على الناس فعملوا الأحكام الشرعية أو أهملوا الأحكام العادية  
أو العقلية أو لم يعرفوا محل الحكم العقلى والعادى عن شرع الله ،  
أو ناقضوا بين الحكم العادى والحكم الشرعى أو الحكم العقلى مع  
الحكم الشرعى ، أو لم يعرفوا أصول استنباط الحكم الشرعى أو لم

يُميزوا بين حكم شرعى مختلف فيه بين أئمة الاجتهاد وحكم لا خلاف فيه أو لم يُميزوا بين الأصول والفروع فان ذلك كله يترتب عليه فساد ما •

\* \* \*

ومن أجل ألا يقع هذا الفساد وجدت العلوم التى تخدم النصوص كعلم القراءات وعلوم القرآن وكعلوم الحديث ، فحرروا الصغيرة والكبيرة مما له علاقة فى النصوص ووجدت علوم اللغة العربية من صرف ونحو وعلوم بلاغة وعلم مفردات من أجل أن تفهم النصوص فهما صحيحا ، ووجد علم أصول الفقه ليضبط موضوع استنباط الأحكام ووجد علم المنطق ليضبط الحكم العقلى والعادى • وعلى ضوء ذلك كله وجد علم العقائد الاسلامية • ووجد علم الفقه ، ومن أجل تذوق العقائد الاسلامية واقامة الأحكام الفقهية قام علم التصوف فى الأصل ، ثم بعد ذلك خرج عن أصل الوضع فبدلا من أن يكون تابعا لعلمى العقائد والفقه صار متبوعا فحدث نتيجة لذلك شركبير •

وورث عصرنا جهد العصور فى ذلك كله •

ومن راغب فى المحافظة عليه كله مع التعصب للخطأ والصواب فيه • ومن راغب فى وضع كل شىء فى محله ومن راغب أن ينسفه كله •

\* \* \*